أمتع قصص الحب في الأدب الفرنسي

هيلوئيز الجديدة(*)

La Nouvelle Heloïse

للأستاذ صلاح الدين المنجد

كان الحبّ في القرن السابع عشر يُرافق البطولة ويُصاحب الشرف. ولقد رأيتَ أن الأميرة دُكليف، خشيت أن تؤذى في الحب. فأفضَتْ إلى زوجها بأنها أحبّتْ، لئلا يمسّ شرَفُه وتُعَرّ كرامته. فلما أتى القرنُ الثامن عشر، مالت المرأة إلى دراسة شمائل الرجل وعاداته من خلال الحب. وانقضى ما كان من قبل من حب هائم، يُسْهِر الليل ويُذْهل اللب، ويُضنى الفؤاد.

وما لبث الناس أن انطلقوا... يلذّون، ويفكرون فساقهم هذا الانطلاق البعيد إلى الملل، ودفعهم الملل إلى حب الطبيعة، والرغبة في البساطة، والبعد عن التكلف، مما هيأ النفوس لقبول رواية هيلوئيز الجديدة، والعناية بها.

* * *

كان روسّو قد أشرف على الخامسة والأربعين من عمره، عند ما كتب هذه الرواية. وكان قد نشأ ابن ساعاتي في جنيف. ثم ماتت أمه وهو صغير. وفر أبوه من رجال الحكومة وتركه فولج كل باب، ودخل كل مدخل، ثم مضى لاهياً متشرداً لا يحفل أحداً.

واتصل بمدام دفرنس، فكانت خليلته وربيطته من غير أن تحبه. كما كانت جورج ساند ربيطة شوبان « Chopin » من بعد.

ثم تركها وصنع كل صناعة. فكان ناموساً لأرشمندريت، ثم سفيراً، ثم سارقاً، ثم موسيقياً، وإلى هذا كله، كان فناناً، حالماً، مرهفَ الحسّ، رقيقَ الشعور، يحس جمال الطبيعة، ويعشق اللذائذ الصافية البسيطة، وكان يرنو إلى زرقة السماء، وخضرة الحقول، وجريان المياه ... ويداعب في نفسه حلماً جميلا.

(*) انظر ما كتبناه من قبل عن الأميرة دوكلف، في هذه المجلة.

أبعدَ أبي العباس يستعتب الدهر ... وما بعده للدهر عُتبى ولا عذر
ألا أيها الناعي ذفافة ذا الندى ... تعست وشلت من أنامل العشر
ولا مطرت أرضاً سماء ولاجرت ... نجوم ولا لذت لشاربها الخمر
كأن بني القعقاع بعد وفاته ... نجوم سماء خر من بينها البدر
توفيت الآمال بعد ذفافة ... فأصبح في شغل عن السفر السفر
وما كان إلا مال من قل ماله ... وذخراً لمن أمسى وليس له ذخر[1]

قال أبو محمد: أنشدني دعبل هذه القصيدة ثم جعل يعجب من أبي تمام في ادعائه إياها وتغييره بعض أبياتها!

وقصيدة أبي تمام التي يقصدها دعبل هي مرثيته الخالدة التي رثى بها محمد بن حميد الطوسي ومطلعها:

كذا فليجل الخطب، وليفدح الأمر ... فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

والتي قهر بها أبو تمام أعداءه، بما أبدع فيها من معان،

(١) رواية الأبيات في كتاب الصولي على غير ترتيب الآن وفيها خلاف وزيادة

أقلقت بال دعبل، وسهدت جفنيه، فأخذ أبياتاً من مرثية أبي سلمى المزني في زفافه، وخلط بها روائع أبيات أبي تمام، ولا سيما:

توفيت الآمال بعد محمد ... وأصبح في شغل عن السفر السفر
وما كان إلا مال من قل ماله ... وذخراً لمن أمسى وليس له ذخر
كأن بني نبهان يوم وفاته ... نجوم سماء خر من بينها البدر

ثم جعل يشنع بها على أبي تمام... ولو فطن إلى سرقات أبي تمام التي وقع عليها الآمدي في هذه المرثية، والتي أشرنا إلى بعضها في هذه الكلمة لكان خيراً له من ذلك التلفيق.

وفي أخبار أبي تمام للصولي (ص ٢٠١) أن محمداً بن موسى حدث بذلك الحسن بن وهب فقال: أما قصيدة مكنف هذه فأنا أعرفها، وشعر هذا الرجل عندي، وقد كان أبو تمام ينشدنيه، وما في قصيدته شيء مما في قصيدة أبي تمام، ولكن دعبلا خلط القصيدتين، إذ كانتا في وزن، وكانتا مرثيتين، ليكذب على أبي تمام!!

وعلى هذا فليس في ذلك نسخ كما وهم بعض نقاد أبي تمام ومنهم الآمدي.

(يتبع)

دريني خشبة

وقصد باريس ، حالماً بالمجد . كان يتمنى نصر الأبطال وخلود العباقرة . ولـكن ما هو الثمن الذى ينبغى أن يؤديه ؟ لقد اخترع طريقة لترقيم الموسيقى ، وكتب غنائية لم ينشرها ، ثم إنه يحس أنه قادر على التأليف ، فهل يكفى هذا ... ؟

وكان إلى ذلك أيضاً رقيق المشاعر ، ولـكنه متكبر . وكان يعيش فى الخيال . ويبتعد عن الواقع ، ويقول : « إن الإنسان لا ينعم بما يناله ، بل بما يأمله . ولا يحس المرء السعادة إلا عند ارتقاب السعادة . » فرجل كهذا ، قد يجد فى عزلته من النعيم مالا يجده بين الناس . ولـكن هناك المجد .. وكيف يدركه ؟

واستطاع أن يتصل بمدام دوبان Mme. Dupin التى كانت تستقبل عظماء باريس كلها وصادق ابن زوجها « فرانـكويل » Francueil وكان هذا عاشقاً « مدام دبينياى Mne d'Epinay » ثم انضم إلى جانب الفلاسفة . وعندما وضع مجمع ديجون Dijon بالمسابقة خطابا حول الفنون والعلوم ، كتب دفاعه الشهير تالياً محاسن المدنية : »

« ... أيتها الفضيلة ، أما تقشعت مبادئك فى جميع القلوب ، أو لا يكفى ، لـكى نعلم قوانينك ، أن ينحنى الإنسان على نفسه فيصغى إلى صوت ضميره ، عند صمت الأهواء ... »

وذاع صيت روسّو ، وعُرف بأنه عدو لدود للعواطف المتكلّفة ، وأنه صديق الطبيعة . هذا أول لقب من ألقاب المجد ، فليفتش عن لقب آخر

وفى السنة ١٧٥٢ ، مُثّلت روايته « عرّاف القرية Le Devin du village » أمام الملك فى فرساى ، وأوتيت حظاً كبيراً من النجاح فتطلّع الناس كلّهم إلى معرفة روسّو والتحدث إليه

لـكن هذا العالم الذى استقبله ورحّب به ، لم يكن قد خُلق له . ولم تكن أبهاء باريس ، وما فيها ، لتروقه . « كانوا يلهون ، يحاولون الجمع بين الفكر والعقل ، ولا يتعمقون فى المباحث خوف الملل . ويجنحون إلى الإيجاز ، ثم لا تجد واحداً ينقد رأىَ آخر ، أو يؤيده ، ويتعصّب له ... »

فماذا يفيد روسّو من هذه المحادثات ؟

وعزف عن الناس ، وانقطع إلى مدام دبينياى ، فى أحضان الطبيعة

وهفت نفسه إلى تأليف رواية يدور موضوعها على الحب ؛ هذا الحب الذى لم ينعم به فى أيام صباه ، وقد هاجه ما يحيط به فى عزلته هذه ، فى دار مدام دبينياى . لقد ذاق طعم حياة هادئة فيها راحة وهناءة وسذاجة . وتمتّع بمرأى الغابات والحقول ، ولذّته أناشيد العصافير ، وأسكرته عبقات الأزاهير . إنها عزلة حلوة ، ولـكن ، ما كان أكثر جمالها وأشد هناءتها ، لو كانت عزلة مخلوقين اثنين عن الناس ، عزلة قلبين متحابين يعيشان فى دار كهذه ، وينعمان بطيب الحياة . وكان الربيع الطلق قد أقبل يضحك ويغنى ، وفى كل مشهد من الطبيعة نداء للحب . فأغراه ذلك كله على كتابة رواية ما . فبدأ ، وأحاط حوادثها بمنظر الطبيعة التى عاش فيها وتمتع بروائها ، أيام كان صبياً غض العود ، على ضفاف بحيرة جنيف . وسماها هيلوئيز الجديدة لأنها تشابه مغامرة هيلوئيز وآبيلار ، المؤدب الذى عشق الفتاة التى عهد إليه أن يؤدبها . وتخيل شاباً لا نسب له ولا مال ، اسمه سان برو ، يحاكى روسو فى خلقه ، ويخالفه فى تبلده ، قد أُتى به ليؤدب جوليا ابنة السيد دبتاج الفنى السويسرى . وكانت قد أوتيت الجمال والشرف والتهذيب . فما أن رآها حتى أحبها . فكتم حبه . فلما ثار الهوى ، وضاق به ذرعاً ، كتب إلى جوليا رسالة حبه الأولى . وهى رسالة رقيقة تفضى إليها بحبه

كان سان برو كروسو ، تؤثر فيه العواطف وتهزه الأهواء . وكان ، كما قلنا ، خيالياً حالماً . فلم يطمع من جوليا بما يصعب نواله ويستحيل إدراكه ، بل كان يريد أن يقول لها : « إن ملامحك خلابة بهرت عينى ... »

« ... إن أبصارنا تتلاقى ، فتفلت من صدورنا بضع آهات فى وقت معاً ، وتنحدر بضع دمعات ...

« ... لقد حاولت اليوم ، مائة مرة ، أن أرتمى على قدميك فأنديهما بعبراتى ، فيفل شجاعتى دائماً رعب قاتل ، وترجف ركبتاى ولا تطيقان ثنياً ... »

وينمو الحب فى قلبى العاشقين . ويحاول سان برو أن يفر خوف الفضيحة فيسافر ، وتتبعه رسائلها تدعوه فيها لـكن كيف السبيل إلى صون الشرف . كلا العاشقين قد أذلها الهوى . ويريدان أن يبقيا شريفين طاهرين ؛ فـكانت تتمنى ألا يجفوها

صادقة فى حبها إياه ، ولم يشأ روسو أن يغريها .. فتألم ويئس ، وأذعن ، ثم شعر بالملل ، وكان يراسلها فانقطع عن مراسلتها .

وعاد روسو إلى روايته يتمها ...

فتخيل أن جوليا تُجبر على زواج رجل روسى نبيل اسمه سان برو ، وتتطلب أن يحبها ، وأن يصونها ويحترمها

ولكى تتم الرواية ، جعل روسو لهذين البطلين وصيفين يكتمان أسرارهما . فاتخذت جوليا ابنة عمها ، واتخذ سان برو صديقه ميلورد ادوارد ، ويجتمع سان برو بجوليا ، وتكون معهما كلير فى غيضة شعرية ، ويكون مشهد القبلة الشهير

« فلما دخلتها ، دهشت لرؤية ابنة عمك تقترب منى وتسألنى قبلة بدلال واستعطاف فقبلت هذه الصديقة الفاتنة غير مدرك من السر شيئاً ، ولكن رباه ! ماذا أصابنى بعد لحظة ، حينما أدركت ... لقد رعشت يدى ، وأحسست قشعريرة لطيفة تدب فى جسمى ، وشمرت بفمك الوردى ، فم جوليا ، يلتهم فوق فمى ، وبذراعيك تضمان جسمى . أواه ! كلا ليست نار السماء بأكثر تأججاً ، ولا أشد سرعة من النار التى سرت تلك اللحظة فى جسمى . لقد كانت النار تندلع من آهاتنا ، وتتأجج فى لاهبات شفاهنا ، وكاد قلبى يموت تحت عبء اللذة ، ثم رأيتك ، وقد شحب وجهك ، تغمضين عينيك الحلوتين ، وتتكئين على ابنة عمك ، ثم تسقطين على الأرض من الإغماء . عندئذ أطفأ الرعب سرورنا ، فلم يك نعيمى غير سنا خاطف كالبرق ...

« إن أثر الإحساس العميق الذى أحسسته لن يزول أبداً . احفظى قبلاتك يا جوليا ... فأنا لا أستطيع احتمالها ... إنهن شديدات الأثر ، يحزن ويحرقن حتى اللب »

ويتأجج الحب ويفور وتقسم جوليا ألا تتزوج أحداً غير سان برو

ويحاول سان برو أن يهدىء من فوران حبه ويخفف ثوران هواه فلم يرَ بُداً من السفر . فغاب وفى إبان غيبته ، أعلم السيد ديتانج ، ابنته جوليا ، أن زواجها رجلاً غير ذى نسب ونبالة مستحيل

فلما عاد سان برو ، هزها الشوق ، وعطفها إليه الحنين ، فتقربت منه ، وأزلها الشيطان ، فأضحت خليلته ، وعندئذ شعرت بوخز الضمير

« ليعزب هذا البربرى إلى الأبد عن وجهى ، ليمض فلا يضاعف بحضوره آلام روحى ، ليكف عن التلذذ الوحشى بتأمل دموعى ، ماذا أقول ؟ وا أسفى على نفسى ! إنه ليس مجرماً . أنا المجرمة وحدى . إن مصائبى لمن صنع يدى ، وليس لى أن ألوم غيرى »

ويسعى ميلورد ادوارد فى إرجاع الأب عما عزم عليه ولكن مسعيه كان فشلا . واضطر سان برو إلى مغادرة سويسرة فقصد باريس .

وتكشف السيدة ديتانج بعد سفر ، رسائل العاشقين .

« ضاع كل شىء ، وانكشف كل شىء . لم أجد الرسائل فى المكان الذى خبأتها فيه ، مع أنها كانت فيه أمس مساء ، لا بد أنها لم ترفع من مكانها إلا اليوم ، وقد تكون أمى وحدها استطاعت أن تراها ، ولئن رآها أبى ، فليكونن هذا آخر عهدى بالحياة ! »

ويقف روسو ، برسائله وروايته عند هذا الحد ، وكان يحمل هذه الرسائل فى حقيبته ، ويقرأهن على النساء ، فيبكين رقة وأسى ، وكان يعتقد أن روايته قد تمت ، وأن الحبيبين افترقا إلى الأبد ، فلا لقاء ، لكن حادثاً يقع ، فيكون نتيجة لتلك القصة الخيالية . وهذا مثال واضح يفسر الصلة بين الرواية والحياة وبين الخيال والحقيقة

* * *

عرف روسو ، فى هذه الحقبة ، مدام دوتو . وكانت هذه ، شأن كثيرات من نساء القرن الثامن عشر ، قد فركت زوجها وأحبت سان لامبير ، القائد الشاعر ، عاشق مدام دُشاتليه

وصادف أن لجأت إليه — وهو فى عزلته عند مدام ديبيناى — وحلة قد بللها المطر . ثم زارته زورة ثانية ممتطية حصاناً ، وقد تزيت بزى الرجال .

يقول روسو : « ... ورغم أنى لا أحب شبيهات هذه السخريات ، فقد بهرت بشكلها ، وأحببتها ... »

لم تكن مدام دوتو ، جميلة . ولكنها ذات سحر وجاذبية . وسرعان ما اشتد حبه وانتقل فجأة من العالم الذى كان يتخيله على الورق ، إلى عالم فيه ما يلاقيه الهائمون من الوله والحنين والشكوى . وكانت ، تيّاهة ، طياشة ذات دل ورقة ، وكانت لا تأبى على روسو النزهات فى ضوء القمر ، أو القُبلات على حفاف النهر . لكن قلبها كان شارداً . أسره رجل غير روسو ، وغير زوجها . رجل قائد خيل إليه أنه شاعر ، وأوهمته أنها

صادقة فى حبها إياه . ولم يشأ روسو أن يغريها . . فتألم ويئس . وأذعن . ثم شعر بالملل ، وكان يراسلها فانقطع عن مراسلتها .

وعاد روسو إلى روايته يتمها ...

فتخيل أن جوليا تجبر على زواج رجل روسى نبيل اسمه ولمار قد أوتى بسطة من البلادة ، وأن سان برو ، يُذعن ، وقد يئس . ثم يجعلها فى حل مما كانت عاهدته عليه ، فلا تتزوج غيره . وتذعن جوليا إطاعة لأبيها ، وشفقة على حبيبها ويضطرب سان برو ، فيسافر ليطوّف فى البلاد ، مسكينة جوليا إنها لم تذق من هواها غير القلق والخوف واليأس .. ولم تلق فى طريقها غير حبيب أحبته ، فأبعد منها ، وزوج لم ترض عنه قرّب إليها .

فلما طوّف كثيراً ، عاد فنزل عند ولمار نفسه زوج جوليا . وحادث جوليا أول محادثة ، وكانت خجلى ، وحاولت أن تبدى عذرها فى زواجها ، ولكن زوجها فاجأها ...

يقول روسو « ... ولم تعبأ ، وظلت تتكلم بحضوره كأنه لم يكن . وعند ما سكتت قال لى : هذا مثال من الصراحة التى تسود هنا . وإذا شئت أن تكون فاضلاً حقاً ، فاتبع هذه السبيل . هذا هو الرجاء الوحيد والأمثولة الطيبة اللذان أقدمهما لك . إن أول خطوة نحو العار أن نخفى الأعمال العلانية . إن حكمة واحدة يمكن أن تحل محل الحِكم كلها . وهى : لا تفعل ولا تقل ما لا تريد أن تنظره من الناس أو تسمعه منهم ... »

لقد حاولت جوليا إدراك سلام القلب مع زوجها ، رغماً عن هواها القديم الذى يثور فى فؤادها . وهكذا انقلبت الرواية إلى درس أو منهج للأخلاق

لقد أراد أن يثبت أن الإخلاص بين الزوجين هو أهم واجبات الزوج شأناً ، وأن الهوى العنيف عند ما تكون الفتاة عذراء ، إذا دام بعد زواجها من لا تحب يصبح جريمة . وأن المرأة تستطيع أن تُنشئ حياة سعيدة على أنقاض حب عظيم

وتقضى جوليا العيش مع زوجها ، فى الحقول ، يراقبان الخدم ، ويوجهان الزارعين ، ويُعنيان بالكروم

ويُعجب سان برو ، بحكمة ولمار وجوليا ورجاحة عقليهما . ويصف الخدم والحديقة ، وصفاً ممتعاً ، ولكنه لم يستطع أن يُطفئ لهب هواه ، أو ينسى حبه القديم فقد كان كل شىء يذكره ويذكرها بنعيم مضى ... وعند ما اتخذت جوليا قارباً تتنزه فيه ، فكرا معاً فى ذلك الماضى الجميل « ... كان صوت المجاديف المتزن ، يثيرنى لأحلم . وكانت صَدَحات دجاج الحقول الرحة تذكرنى بنُعميات عمر مضى فتحزننى بدلاً من أن تفرحنى . وشعرت ، رويداً رويداً ، بازدياد الغم الذى كنت به مثقلاً . فلا سفاء السماء ، ولا طراوة الهواء ، ولا شعاعات القمر اللطيفة ، ولا رعشات الماء الفضية حولنا ، حتى ، ولا وجود هذه المخلوقة العزيزة ، لم يستطع أن يطرد عن قلبى ألف فكرة مؤلمة ... »

ويُنهى روسو روايته بموت جوليا . بعد أن أوصت سان برو بزواج كلير ابنة عمها ، ولكنه أبى . وعاش مع كلير ينشّئان أولادها ، وفاء لها

* * *

تلك خلاصة موجزة عن هيلوئيز الجديدة . ولقد أوتيت من الانتشار ما لم يقدّر لغيرها . وقرأها النساء والشبان والشيخان ، بحماسة ولذة . وظلت طوال القرن الثامن عشر ، رواية الجمهور . لقد علّم روسو بها الحب نابليون ، وأخذ عنه غوته وستاندال أيضاً . وعلم بها الناس الفضيلة ، فكان قائداً أخلاقياً ، ثم علمهم بها حب الطبيعة فأحبوها ، وكان أباً وأستاذاً للابتداعيين الذين أتوا بعده .

صدوق الدين المنجد

ظهر أخيراً كتاب

من يوميات محام

للاستاذ

عبده حسن الزيات

المحامى

ثمن النسخة خمسة وأربعون قرشا صاغاً مصريا

يطلب من مكتب المؤلف

شارع إبراهيم باشا رقم ١٠ عابدين القاهرة